المواضيع الشعرية الذاتية عند ابن عمار الجزائري، دراسة موضوعاتية

The subjective poetic topics of Ibn Ammar al-Jazaery, a thematic study

د. خالدي ربحة [1] *،

[1] جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس - الجزائر

تاريخ الارسال: 2021/11/04 تاريخ القبول: 2021/11/09 تاريخ النشر: 2021/12/31

ملخص:

من النصوص التي عرفت جمالا وقيما فنية وأدبية تلك النصوص التي وجدت في بعض المدونات الشعرية الخاصة بشعراء تألقوا في الفترة العثمانية، ونسلط في هذا لبحث لضوء على بعض النصوص الذاتية في غرض المدح للشاعر ابن عمار الجزائري. اخترنا في بحثنا هذا الدراسة الموضوعاتية منهجا لمعالجة النصوص الشعرية الذاتية عند ابن عمار الجزائري، لأجل الوصول إلى الدلالات النفسية والاجتماعية والدينية فيها، ولأن هذا المنهج يعطي للقارئ حرية التأويل ليعالج النص من عدة زوايا ويبرز قيمه الفنية والجمالية، واستعنا أيضا بالمنهج التحليلي والوصفي لإظهار موضوعات النصوص وقيمها الكامنة.

الكلمات المفتاحية : شعر؛ موضوعاتية؛ جزائري؛ ابن عمار الجزائري.

Abstract:

Among the texts that were known for their beauty and artistic and literary values, are those texts that were found in some poetic blogs of poets who excelled in the Ottoman period.

We chose in our research this thematic study a method for treating the subjective poetic texts of Ibn Ammar al-Jazaery, in order to reach the psychological, social and religious connotations in them, and because this approach gives the reader the freedom of interpretation to treat the text from several angles and highlight its artistic and aesthetic values, and we also used the analytical and descriptive approach to show the topics of the texts and its underlying values.

Keywords: Poetry; thematic; Algerian; Ibn Ammar al-Jazaery.

* **المؤلف المرسل:** khaldirebha22@gmail.com

مقدمة:

تعد الدراسة الموضوعاتية منهجا من المناهج التي تعالج النصوص حسب مدلولاتها ومقتضيات أصحابها النفسية والاجتماعية والدينية، وهذا المنهج يعطي للقارئ حرية التأويل والتعليق ليعالج النصوص من عدة زوايا وهو بهذا يبرز مباشرة قيم النصوص الفنية والجمالية، ويستعين هذا المنهج خاصة بالمنهج التحليلي الفني والوصفي عند القيام بتصنيف النصوص الشعرية إلى موضوعات قصد دراستها وتحليلها لإبراز قيمها الفنية والجمالية، وقد اخترت هذا المنهج لتصنيف نصوص ابن عمار الشعرية وإظهار موضوعها وقيمها الجمالية ولذلك لا بد من تعريف موجز للمقاربة الموضوعاتية .

بداية بدأ تقريب المعنى الموضوعاتي المشتق من كلمة موضوع وهو من المفاهيم المؤسسة للنقد الموضوعاتي، وقد عرّف عبد الكريم حسن الموضوع فقال:" هو المبدأ الذي تلتقي عنده كافة المفاهيم التي تؤسس المنهج الموضوعي. ولعله من قبيل التزيد أن نشير إلى أن الموضوعية هنا ليست إلا نسبة للموضوع"Thème" مما يضع الموضوع في المقام الأول بين بقية المفاهيم"[1]، وقد مثّل هذا المنهج مجموعة من النقاد الغربيون أبرزهم الناقد الفرنسي المعروف " جان بيير ريشارد – J.P.Richard" [2]. هذا الأخير الذي عرّف الموضوع "على أنه مبدأ تنظيمي محسوس، أو ديناميكية داخلية، أو شيء ثابت يسمح لعالم حوله بالتشكل والامتداد. والنقطة المهمة في هذا المبدأ تكمن في تلك القرابة السرية؛ في ذلك التطابق الخفي والذي يراد الكشف عنه تحت أستار عديدة"[3]، وإلى جانبه من رواد هذا المنهج نذكر أيضا جان روسيه(Rousset)، وجان ستاروبنسكي(Starobinski)، وجورج بوليه(Poulet)، وغيرهم، كما يعد غاستون باشلار(Bachlard) الأب الروحي للنقد الموضوعاتي[4].

أ– الموضوعاتية لغة: يشتق مصطلح (الموضوعاتي/thèmatique)، "في الحقل المعجمي الفرنسي من كلمة (thème)، وهي التيمة، هذه الكلمة التي وردت في عدة معان مترادفة، كالموضوع، والغرض، والمحور، والفكرة الأساسية، والعنوان، والحافز، والبؤرة، والمركز، والنواة الدلالية،..ويقابل كلمة (thème)، عند اللسانيين الوظيفيين، مصطلح التعليق (Rème)؛ لأن التعليق عبارة عن موضوعات جديدة أو أخبار تسند إلى المسند إليه، أو تضاف إلى الفكرة الرئيسية المحورية أو النواة البؤرية. ولقد استعمل المصطلح الموضوعاتي أو التيمي بشكل انطباعي وعفوي من قبل جان بول ويبر(Jean Paul Weber)، إذ أطلقه على الصورة المتفردة والملحة في تكرارها والمتواجدة بشكل مهيمن في عمل أدبي عند كاتب معين، وقد كان تحديد مفهوم النقد الموضوعاتي صعبا نظرا لتعدد مدلولاته الاشتقاقية والاصطلاحية"[5].

ب– الموضوعاتية اصطلاحا: تعتمد المقاربة الموضوعاتية على الفكرة العامة أو الفكرة المهيمنة أو البنية الدالة التي تتجلى في النص أو العمل الأدبي المدروس، وذلك اعتمادا على النسق البنيوي وإجراءاته التعبيرية المختلفة، كما يضم أيضا البحث عما يجسد وحدة النص العضوية والموضوعية اتساقا وانسجاما وتنظيما، كما تعتمد القراءة الموضوعاتية في دراسة النص على البدء من القراءة الصغرى إلى القراءة الكبرى، والتعرف على الجنس الأدبي، ورصد حيثياته المناصية والمرجعية، وتفكيك النص إلى حقول معجمية، وجداول دلالية إحصائية لمعرفة الكلمات والعبارات والصور المتكررة في النص أو

العمل الإبداعي، كما ترصد المقاربة الموضوعاتية كل الكلمات الموجودة في العمل الإبداعي من مفاتيح، وصور، وعلامات لغوية بارزة، والرموز الموحية، وقراءتها إحصائيا وتأويليا. ولن تكون القراءة الموضوعاتية ناجعة وسليمة إلا بقراءة السياق النصي والذهني للكلمات، واستكشاف المفردات المعجمية المتكررة. ويمكن الاستعانة في هذا المجال بمجموعة من الإجراءات المنهجية، كالتشاكل، والتوازي، والتعادل، والترادف، والتطابق، والتقابل، والتكرار، لتحديد البنيات الدالة المهيمنة والمتكررة في النص، كما تتطلب الدراسة الموضوعاتية قراءة نص أو مجموعة من النصوص والأعمال الإبداعية التي تعود إلى المبدع، والبحث عن بنياتها الداخلية، ومع جمع الاستنتاجات المستنبطة لهذه النصوص وتركيبها تركيبا متجانسا، واستقراء البعد النصي للمبدع.[6]

تعتمد الدراسة الموضوعاتية على مجموعة من الركائز المنهجية التي تتحكم في العمل الأدبي ونذكر منها[7]:

- ✓ قراءة النص قراءة شاعرية عميقة ومنفتحة.
- ✓ الانتقال من القراءة الصغرى إلى القراءة الكبرى.
- ✓ تحديد مكونات النص المناصية والمرجعية.
- ✓ الجمع بين القراءة الذاتية والقراءة الموضوعية.
- ✓ البحث عن التيمات الأساسية، والبنيات الدلالية المحورية، والموضوعات المتكررة، والصور المفصلة في النص الإبداعي.
- ✓ رصد الأفعال المحركة والمولدة للمعاني في سياقاتها الصوتية والإيقاعية والصرفية والتركيبية والتداولية، مع دراسة دلالاتها الحرفية والمجازية، واستنطاقها فهما وتأويلا.

هذا، وقد ورد إضافة إلى هذه الركائز غيرها من المبادئ التنظيمية في المقاربة الموضوعاتية للنص الإبداعي باعتبارها منهجا جديدا في النقد الجديد.

2- المواضيع الشعرية الذاتية لابن عمار:

**** باب المدح :**

المدح هو "غرض من الأغراض الشعرية، يقوم على فن الثناء وتعداد مناقب الإنسان الحي، وإظهار محاسنه وإشاعة محامده التي خلقها الله فيه بالفطرة أو التي اكتسبها اكتسابا والتي يتوهمها الشاعر فيه" [8]، وكان المدح في العصر الجاهلي واجبا مقدسا وأداء لحق القبيلة، على الشاعر أن ينهض به لإظهار فضائلها وتخليد أمجادها ومفاخرها، وكان الإعجاب يعتبر الدافع الأول الذي ينطق بمدح الممدوح، والشاعر في القديم لا يتكسب بالشعر " وإنما ينظم الشعر في مقابل حق يراه فيؤدي واجبه " [9]

ويعد غرض المدح أبرز الأغراض الشعرية التي ارتبطت في مفهومها بعادة التكسب لدى بعض الشعراء؛ في المقابل كان بعضهم لم يلتمسوا مالا وإنما يشكروا لمن أيدوهم ومدحوهم. فالمدح غرض شعري يتناول فيه الشاعر وصف محاسن

الممدوح ويعدد مآثره، وقد شاع غرض المدح واستثرى في الشعر العربي، وبلغ مبلغا متقدما في اعتماده من طرف الشعراء، كما كان المدح ينبع من دافع حقيقي يدل على كرم الخلق، ثم تطورت هذه الدوافع إلى حب المال هذا الحب الذي جر بعض الشعراء إلى غاية التكسب[10]. وقد ظهرت هذه الغاية في أواخر العصر الجاهلي، فقد قام بعض الشعراء يقدمون على السادة والملوك يمدحوهم وينالون جوائزهم، حتى أنهم جعلوا من الشعر كمصدر هام لجلب المال فكانت عنايتهم بالقصائد عناية بالغة حتى تحقق لهم ما يريدون من خلال التأثير في ممدوحيهم.[11]

كما اهتم النقاد بموضوع المديح، وأرشدوا الشعراء إلى مواطن الإجادة ومواطن الضعف، وبينوا لهم نيل الحضرة عند ممدوحيهم، ويرجع قدامة بن جعفر صفات المدح إلى مجموعة من الفضائل والخصال وتتمثل في العقل والشجاعة والعدل والعفة [12] وهذه الخصال الأربعة اعتبرها أصولا وكل أصل يتفرع إلى صفات ثانوية، فالعقل أصل ترجع إليه من الفضائل كالمعرفة والحياء والبيان والعلم والحجة والحلم والسياسة والكفاية والصدع بالحجة، والشجاعة أصل ترجع إليه فضيلة الحماية والدفاع والإقدام، والعدل يحمل الكثير من الخصال كالسماحة والتبرع بالنسائل وإجابة السائل وقرى الأضياف، كما نجد العفة ترجع لها الفضائل كالقناعة وقلة الشره وطهارة الإزار وغيرها .[13]

إضافة إلى هذا التقسيم الذي وضعه النقاد مقياسا للجودة والذي يمدح فيه الشاعر بفضيلة ما من الفضائل المذكورة، دعا النقاد إلى مراعاة الممدوح فلكل ممدوح ما يناسبه من المعاني والصور والأساليب والتشبيهات.

وأما من ناحية المضمون فالشاعر يبرز في ممدوحيه الصفات التي تُظهر الإعجاب وهي صفات تقليدية يطيب للعربي أن يوصف بها كالمروءة والشجاعة والكرم وما يدور حول انتصارات الممدوح التي تعد نصرا للدين والأمة، ويدخل أحيانا في وصفه المعارك والسلاح والجيوش .

والمديح عند شاعرنا ابن عمار لا يختلف كثيرا عن المديح في القصيدة العربية الأصيلة، فقد نظم شعر المدح وأبدع فيه حتى إنه كان ينافس أستاذه ابن علي في إبداع المعاني والصور واختيار اللغة وحتى في عدد الأبيات وهذا ما أوضحه أبو القاسم سعد الله بقوله : " هذه القصيدة هي جواب ابن عمار لابن علي على قصيدته السابقة.. وقد تعمد ابن عمار أن يجيبه بنفس الوزن والقافية وحتى عدد الأبيات، فكأنه بذلك يسابقه ويبارزه" [14] .

فقد غلب على شعره موضوع المدح وغالبا ما توجه مدائحه إلى المديح النبوي والتحبيب إلى إحياء هذه الذكرى المقدسة في ديننا الحنيف، كما توجه مديحه كذلك إلى الأمراء والخلفاء والعلماء خاصة أستاذه ابن علي الذي كان له النصيب الأكبر، فتغنى ببطولات الحكام والسادة ومكارمهم وخصالهم الحميدة في السلم والحرب،كما تغنى بشخص ابن علي وذكائه وفطنته وعلمه .

كما أعجب شاعرنا بالخلق الرفيع والرأي السديد وبالشجاعة الفائقة والكرم الواسع، فأثنى على رجال العلم والأدب ونظر إليهم نظرة افتخار وإعجاب، فتفنن في ذلك مستحضرا المعارف الأدبية والتشابيه وأسماء كبار الأدباء والشعراء، ونظر نظرة اعتزاز وإكبار تجاه الملوك والوزراء بطريقة حكمهم ورشاد سياستهم، وبعظيم انتصاراتهم وبقيم تسامحهم .

أ- المديح النبوي: قبل أن نبدأ بأنواع المدح وما مدح فيه الشاعر من العلماء والأصدقاء والأمراء والحكام، وجب أن نذكر أولا مديحه للنبي صلوات الله عليه وهذا لتعظيم هذا الموسم الذي شرف به الإسلام فقد "كان ابن عمار من كبار الشعراء في القرن الثاني عشر الهجري، وله شعر كثير " [15] وهذه القصيدة الموشحة التي بين أيدينا اخترت منها هذه الأبيات :

يَانَسِيمًا بَاتَ مِنَ زَهْرِ الرُّبَى يَقْتَفِي الرُّكْبَانَ
اِحْمِلْنَ مِنِّي سَلاَمًا طَيِّبًا لِأُهَيْلَ البَانَ
اِقْرَأْنَ مِنِّي سَلاَمًا عبِقًا إِنْ بَدَتْ نَجدُ
إِنَّ لِي قَلْبًا إِلَيْهَا شَيِقًا شَفَّهُ وَجَدُ
وَفُؤَادِي يجْتبِيهَا حَرَقًا وَضَنِّي يَعْدُو
وَدُمُوعُ العَيْنُ تَهْمَى سَحَبًا قَطْرُهَا هَتَّانَ
وَالكَرَى عَنْ مُقْلَتِي قَدْ غَضِبَا وَجَفَا الأَجْفَانَ
يَا رَعَى اللهُ فُؤَادِي كَمْ لَهُ لِلْحِمَى تَوْقُ
كُلَّمَا حَثَّ الرِكَابُ بِزَلِهِ هَزَّهُ شَوْقُ
وَحَنِينًا ينْقَضِي لَيْلُهُ إِنْ سَرَى بَرْقُ [16]

وهو ينادي هذا النسيم الطيب الذي يقتفي وراء زائرين مقامه الطيب وديارة الطيبة ويقرئه السلام، ويسلم على عرب نجد، فقلبه متشوق وفؤاده يحترق ودموع عينه تهمى كالسحب، فشدّه الغضب والحزن والحنين إلى أرضه الطاهرة والطيبة، فقد تاقت نفسه ومما زاد في شوقه وحنينه هؤلاء الركاب الذين يشدون الرحال إلى الأراضي الطاهرة المقدسة.

وقوله في نفس الموشح:

وَأَنَا الجَانِي الذِي قَدْ هَرَبَا لِعُلَى ذِي الشَانَ
وَرَأَى مَدْحَ النَبِّي مَذْهَبًا وَبِهِ قَدْ دَانَ
ظَلَّ القَلْبُ بِمَدْحِ المُصْطَفَى عِنْدَ إِبْعَادِهِ
وَاتَّخَذَ عِيدًا وَعُرْسًا قَدْ صَفَا يَوْمَ مِيلاَدِهِ
يَوْمَ نِلْنَا الفَوْزَ وَصْفًا ظَلَّ إسعادِهِ [17]
وَعَلَى الآلِ وَمَنْ قَدْ صَحِبَا هَاطِلُ الرِضْوَانَ
مَا هَمَا غَيْثٌ وَمَا هَزَّ الصِبَا عَذْبَةُ الأَغْصَانَ [18]

ويظل قلبه يمدح المصطفى عليه السلام فيقربه منه رغم بعده عنه، فيتخذ من يوم ميلاده عرسا وفرحا، ودائما يتجدد شوقه، وتتجدد صبابته، ويتجدد هيامه، وقد فاز بهذا اليوم الطيب الطاهر الذي ينادي فيه محبيه فيصلون عليه ويبدعوا

في أمداحهم له أفضل الصلاة والسلام، والشاعر يقول بعد هذه القصيدة البديعة أن له غيرها من المنظومات والقصائد الموشحة التي تصل إلى عدد الديوان في مدح الرسول الكريم لكن هذا الديوان مفقود للأسف.

ب– مدح العلماء :

من النعم الجليلة التي أنعمها على عباده نعمة العلم فهو الخير والهداية والبركة والرفعة، مدحه الله عز وجل في كتابه وعلى لسان رسوله (صلى الله عليه وسلم) بل أمر نبينا (عليه الصلاة والسلام) بان يطلب الاستزادة منه في قوله عزوجل:﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾[19] . فقد افتتح به عند نزوله على نبينا الكريم فكان أول ما نزل عليه وذلك في سورة العلق قوله تعالى: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴾[20] وقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على طلب العلم والاستزادة فيه، من مدح العلماء، وحثٌ على طلب العلم، وبيانٍ لأهمية العلم في حياة الإنسان، وكما حثنا على طلب العلم، مدح العلماء ورفعهم إلى منزلة الأنبياء، ورفع من قدرهم وعظيم مكانتهم في آيات كثيرة ونذكر منها قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾ [21]، وقوله:﴿ **فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [22]، وفي موضع آخر قال: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ** ﴾ [23] "وقد قرن شهادته بشهادتهم وشهادة ملائكته، وهذا يدل على عظيم منزلتهم، ورفيع مكانتهم، وعلو درجتهم" [24] . ففضلهم يدل على ما يحملون من علوم سواء كانت نقلية أو عقلية.

ومن خلال ما تقدم عن فضل مدح العلماء نجد أن ابن عمار قد أبدع في هذا المجال خاصة عندما خص مدحه على شيخه وصديقه ابن علي وشعره، قائلا عنه انه إلى جانب جودة الشعر كان راوية للحديث مفسرا للقرآن، وكان تقيا ورعا، وأديبا ناسكا فقال فيه :

أَدَبٌ يريكَ الروضُ وقتَ ربيعهِ وَتَنَسُكٌ يدْنيكَ من رحْمانهِ
فالعِلْمُ أنْتَ اليَوْمَ خائِضُ بَحْرِهِ وَالشِعْرُ أَنْتَ اليومَ ربَ عنانَهِ [25]

يرى الشاعر في ممدوحه أن أدبه هو كالروضة وقت الربيع عندما تزهو بالألوان والأنواع والجمال والبهاء، كما صنف علم ابن علي في أعلى المراتب في عصره فإذا وُجد العلم خاض بحره وإذا ذُكر الشعر اعتلى وتألق .

ونجده في موضع آخر يمدح براعته في الكتابة والشعر وغيرها من الميزات الفنية كصياغة المعاني واختيار الألفاظ وأفكاره المتجددة التي تميز بها عن غيره من الكتاب في عصره فقال فيه:

يَا بَارِعًا بَرَزَتْ سَوَابِقَ فِكْرِهِ فِي حَلَبَةِ الشُعَرَاءِ وَالكُتَّابِ
صُغْتَ المَعَانِي فِي اِنْتِظَامِكَ أَعْيُنًا وَرَقَائِقَ الأَلْفَاظِ كَالأَهْدَابِ
أَبْرَزْتَهَا مِنْ خَدْرِ فِكْرِكَ خَرْدًا تَخْتَالُ فِي حُلَلٍ مِنَ الآدَابِ
ذِهْنٌ يَسِيلُ وَفِكْرَةً مَشْبُوبَةً وَذَلِيقُ نُطْقٍ صَادِعٍ بِصَوَابِ[26]

وفي موضع آخر تحدث فيه عن إحيائه للعلم فقال فيه :

العَالِمُ العِلمَ الذي أحْيا لنَا ما قَدْ أمَاتَ الدَهْرَ مِنْ نَعْمَائِه [27]

فوصفه بالعالم الذي أحيا العلوم التي مضى عليها الدهر وأماتها، كما زاد في جمال هذا البيت المحسن البديعي حين طابق الشاعر بين (أحيا وأمات)، وهذا لإبراز ممدوحه في علمه المنير والذي تألق في مختلف العلوم، وذكر لنا من هذه العلوم التي أبدع فيها، وهي راوي الحديث النبوي الشريف ومفسر للذكر الحكيم والتأويل إلى غير ذلك من العلوم في قوله :

رَاوِي حديثَ المصْطفَى ابن عَلي المعْدودِ في ذَا العَصْر منْ أعْيانِه
ومفَسّر الذِكْر الحَكِيم و مُظهِـر التَأْويلَ و المَنُوحَ فَهْم بيَانِه
والمرَشِفَ الآذان مِن سِلسَالـهِ والمقْطفَ الأذْهانَ منْ بسْتانهِ [28]

وعن طريقته في النظم قال :

نظمٌ لهُ تتدفّقُ الآدابُ منْ جنُباتهِ و العِلمُ من أرْكانهِ

فيقول عنه :" ولما أملى علي شيخنا الأديب النبيه، البارع في فنون المجاز والتشبيه، بعض بدائع حكمه ..." [29] وهي مقدمة نثرية بديعة لابن عمار تسبق قصيدة شعرية في شخص ابن علي فقد تميز ابن عمار عن إبداعه في النثر أكثر من الشعر حتى أن أبو القاسم سعد الله صنفه في فصل النثر في حين صنف ابن علي في فصل الشعر في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي .

وبعد المقدمة النثرية التي تحدثت عنها ذكر أغراض الشعر التي اتسم بها شعره (ابن علي) فقال :

فَإذَا يُشَبّبُ فَهُـوَ عُـرْوَةَ رِقَـةً يَهْدِي رَقِيقَ النَّسْجِ مِـنْ غِيلاَنِهِ
وَإذَا يَصُوغُ المَدْحَ فَهُـوَ زَهِيـرُهُ مَهْمَا اِنْبَرَى لِلْقَوْلِ فِي اِبْنِ سِنَانِهِ
وَإذَا اِغْتَدَى يَصِفُ المَبَانِيَ وَ الذَرَى خَرَّ اِبْنُ حَمِديسَ عَلَـى أَذْقَانِهِ
أَوْ جَالَ فِي وَصْفِ الرّيَاضِ أَوْ الرُّبَى أَعْـرَى أَبَا إِسْحَاقَ مِنْ إِحْسَانِهِ
فَهُوَ الـذِي رَاضَ الْبَيَانَ وَ سَاسَهُ حَتَّ اِغْتَـدَى يَنْقَادُ فِي أَرْسَانِهِ
فِي النَّظْمِ أَوْ فِي النَّثْرِ تَحْسَبُهُ الـذِي يُعْزَي إِلَى سَلْمَانِ أَوْ خَاقَانِهِ
هَذِي القَلاَئِدُ صَاغَهَـا وَوَشَّتْ لَنَـا رَيْحَانَـةَ الكُتَّابِ غِـرُّ بَنَانِهِ
لَوْلاَ الإِحَاطَةُ بِالبَلاَغَةِ مَـا ثَنَـى عَنْ مَطْمَحِ العَلْيَاءِ أَهْـلَ أَوَانِهِ [30]

فقد ذكر ابن عمار من خلال هذه الأبيات أغراض الشعر التي اتصف بها شعره هي التشبيب والمدح والوصف، وكما برع في الشعر برع في النثر وهذا لثقافته الأدبية والعلمية وتمكنه من البيان العربي والذوق الفني والثقافة الإسلامية التي تمتد جذورها عبر إنتاج شعراء الأندلس وبغداد ودمشق والحجاز ومصر، فقد عرف "بقوة النفس واتساع العارضة والحبكة الشعرية وطواعية المعاني للألفاظ ومواتاة الصور " [31]؛ فأحاط بالبلاغة واعتلى في زمانه ولا نعلم شاعرا في القرن 12 في المشرق أو في المغرب، بلغ مبلغ ابن علي- ونلاحظ أن ابن عمار يتفنن في مواضع شعره فهو ينتقد طريقة الشعراء- في عصره حتى أن ابن عمار قال إن الشعر قد أصيب برقدة طويلة وغلقت عليه الأبواب قبل ابن على وهذا ما يظهر في قوله :

قَدْ كَانَ بَابُ النَظْم قَبْلكَ مُغَلَّقًا فَفتَحْتَهُ يَا فَاتِحَ الأَبْوَابِ
و نَشَرْتَهُ مِنْ بَعْد طَيّ بِسَاطِهِ وَرَدَدْتَهُ مِنْ بَعْدِ طُولِ ذَهَابِ
وَاسْلَمْ بِطُولِ الدّهْرِ تُوَضِحْ مُشْكِلاً صَعْبًا وَ تُحْي مَيِتَ الآدَابِ [32]

فقد فتح باب كان مغلقا هو باب النظم لعلمه ونظرته الثاقبة، فنشره بعد ما كان مهملا ميتا، فجاء ابن علي ليحييه من جديد ويسهله بعد ما كان صعبا فتجاهله الكثير من العلماء.

هذا شعره عن إمامه وأستاذه وصديقه ابن علي، ونجده كذلك يذكر في شعره آخرون عاصرون أو عاش بينهم أو تعرف إليهم فيقول عن الزروق بن عبد اللطيف الذي تولى الفتوى والتدريس والخطابة :

إِمَامُ الهَدْيَ مُفْتِي الأَنَامُ وَشَيْخَهُمْ فَتَى الرَّأْيَ وَالتَدْبِيرَ وَالعِلْمَ وَالنَّظَرَ
ذَكِيٌ إِذَا مَا جَالَ فِي لَيْلِ مُشْكِلٍ جَلاَ جُنْحَهُ مِـنْ ذِهْنِهِ سَاطِعٍ بَهَـرَ [33]

كما ذكرت أنه يتحدث عن الزروق بن عبد اللطيف، فوصفه بعدة أوصاف وهي الإمام وهذا لأنه يوجه ويرشد والمفتي، لأنه يشرح ويفسر المسائل الدينية، والشيخ لكبره ورزانته وهيبته، ونعته بفتى الرأي لرأيه السديد وعلمه، ووصفه بالذكي لنظرته الثاقبة وبراعته في حل المسائل المصتعصية؛ فهذا المدح الجميل الذي مهما حاولنا شرحه لا نستطيع الوصول إلى الصورة الرائعة التي عبر بها ابن عمار.

و يقول عن احمد بن عبد اللطيف الذي نسب إليه الوزارة :

كَمَا سَطَعَتْ أَنْوَارُ وَجْهَ وَزِيرَنَا إِذْ اِقْتَحَمَ الهَيْجَاءَ أَوْ مُنِحَ البَدْرَ
سُنِيٌ سِرِيٌ مَـاجِـدٌ مُتَفَضِّلٌ زَكِيٌ فَلاَ يَعْرُوهُ جُبْنُ وَلَا خُوَرَ[34]

فيرى الشاعر في ممدوحه وجها مشرقا ساطعا بأنواره، فيقتحم به الهيجاء ويمنح البدر، ويقول سعد الله في التعليق انه لم يكن في الجزائر العثمانية وظيفة بهذا اللقب، فنلاحظ أن شاعرنا أوسم الوزارة إلى ممدوحه لجدارته وإعجابه به ووجد فيه قدرا كافي من الذكاء والفطنة والعلم.

شخصية أخرى من عائلة عبد اللطيف، وهو عبد الرحمن، والذي وصفه أنه كان كاتب سر ويقول فيه :

كَمَا فَضَحَتْ دُرُّ القَلَائِدَ صَفْحَةً وَشَتْهَا بِنَانَ الكَاتِبُ السِرِّ أَنْ نَثَرْ
أَبِي زَيْدٍ المَطبُـــوع أَبلَـــغُ كَاتِبٍ تَصَدَّرَ لِلْتَرْسِيـــــلِ أَوْ شَاعِرٌ شَعَرْ
إِذَا مَا وَشَى بالنَّظْمَ وَ النَثْرَ صَفْحَةً تَنَظّـــمَ دُرُّ العِقْـــدَ وَانتَثَرَ الزَهَرْ [35]

هي صورة صوّرها ابن عمار عندما تحدث عن الكاتب البليغ، وهو بهذا التصوير يبين لنا أنه يجيد الشعر كما يجيد في النثر، فقال "تنظّم در العقد" ويقصد به الشعر، وقوله "انتثر الزهر" فشبه نثره بالأزهار المنتشرة الجميلة الباهية وهذا لجمال كتاباته وسلاستها.

شخصية أخرى خصها كذلك بالمدح من عائلة عبد اللطيف، وهو محمود الذي كان متوليا للقضاء فقال فيه :

كَمَحْمُودِهِمْ قَاضِي القُضَاةَ أَبِيُّ الثَنَا تَوَطَّى عَلَى مَتْنِ القَضَاءِ لَهُ المَقَرّ
سِرّيٌ سَرَى نَحْوَ العُـلَا يَبْتَغِي المُنَـا وَأَسْهَرَ طَرْفَ الحَزْمِ كَيْ يَبْلُغَ الوَطَرَ
فَقِيهٌ إِذَا مَـا الخَصْمُ حَـاوَلَ فَصْلَهُ تَرَاءَى لَهُ النُعْمَانُ فِي الوَرْدِ وَالصَدْرَ [36]

وظف الضمير "هم" للدلالة على انتمائه إلى عائلة ابن عبد اللطيف، وهنا أثنى عليه لعلمه وجدارته بهذا المنصب وعلى عائلته، فهو يستحق الثناء والتقدير واستطاع بذلك التفوق على خصومه فاعتلى بفضل هذا العلم ووقوف النعمان في صفه .

ثم ختم القطعة الشعرية بمدح ابن ميمون[37] فقال :

أَديبٌ أَرِيبٌ بَـارِعٌ مُتَفضِـّل تَبَحَّرَ فِي الآدابِ وَ انْهَلَّ كَالمطَر
إِذَا خَاضَ فِي الآدَابِ أَوْ جَادَ وَاحْتَبَى رَأَيْتَ الهُزْبُرَ الوَرْدَ وَ الرَوْضَ وَ النَهَر

فالشاعر هنا يبين براعة الأديب والشاعر "ابن ميمون"، فكان من المفضلين عند ابن عمار في شعره وكتاباته، وما زاد الصورة جمالا وأناقة، ذلك التشبيه الذي وظفه، ليبين مدى براعة الشاعر وكثرة أعماله في قوله :" انهل كالمطر" فشبه كثرة أعماله وتنوعها بغزارة المطر .

وفي صورة أخرى جعل من ابن ميمون بارعا في كل لون أدبي خاض فيه شعرا كان أم نثرا وهذا عندما وظف أسلوب المبالغة في تنوع أعماله مستعينا بتشبيهات من جمال الطبيعة الخلابة.

جـ- المدح بالقوة و الشجاعة :

وقد بالغ ابن عمار في وصف عائلة ابن عبد اللطيف وهذا لإعجابه الكبير بهم ولإعلاء مكانتهم في ذلك الوقت فقال :[38]

إِذَا اِقْتَحَمُوا الهَيْجَاءَ خَلَتْ صُدُورُهُمْ لَسَمِرَ القَنَا الأَتْرَاسِ وَ المِغْفَرُ الغُرَرْ
قُلُوبٌ كَصَمِّ الصَخْرِ تَقْتَحِمُ الـوَغَى وَ إِنْ شَاهَدُوا المِسْكِينَ فَهِيَ صَبَا سَحَرْ
إِذَا جُـنَّ لَيْلُ النَقْـعُ وَاشْتَجَرَ القَنَا تَجْلُوا بُدُورًا تَمْحَقُ اللَّيْلَ وَ السَّمَرَ
فَمَـا أَبْرَقَتْ تِلْكَ الأَسِنَّةِ وَ الضِبَا عَلَى مَعْرَكٍ إِلَّا الدِّمَاءُ لَهُ مَطَرَ
وَإِنْ شَهَرُواْ اَلأَسْيَافَ أَوْ ثُقِفُواْ القَنَـا رَأَيْتَ قَتِيلاً أَوْ طَعِينًا عَلَى الأَثَرَ

الشاعر يتفنن في استعمال البديع والبيان ويغوص بين التشابيه النادرة والمجازات الغريبة فيستثير إعجاب النقاد وغيرهم ممن أولعوا بالصنعة وأعجبوا بتنميق الكلام، ونحس بشعور عميق يحرك الشاعر ويدفعه إلى المبالغة في المدح ، هذه الخاصية الفنية في المدح تعود إلى "صدق الشاعر في إظهار الحقيقة ليس بصورتها المرئية وإنما بالصورة القادرة على إظهارها بقسمات مؤثرة وممتعة"[39].

ودلالة الكلمات" اقتحموا، قلوب كصم الصخر، تمحق، الدماء، شهروا السيوف، قتيلا، طعينا.." على قوة وشجاعة هؤلاء الأشخاص وصلابتهم فهو بهذه الأوصاف يبدع ويعطي صورة مميزة لهم فهم شرسون وخطرون في قلب المعركة؛ ويقول أبو القاسم سعد الله في تعليقه على هذه الأبيات :" يبدو أن هذه الأوصاف العسكرية لعائلة ابن عبد اللطيف قد بالغ فيها ابن عمار، لان دراستنا لتاريخ الجزائر لم تكشف لنا عن قائد قوي بهذا الاسم، ونفس الشيء يقال عن مبالغته في دورهم السياسي " [40]. نستطيع أن نكشف من خلال هذه الأبيات شاعرا مبدعا جديرا بأن يمثل شعره بشعراء كبار كابن الخطيب وغيره شاعرا يجمع بين غزارة شعوره وتدفقه، شاعرا يملك ناصية الصياغة الشعرية والصناعة الكلامية وله قصائد تخللت أحاسيس الشوق والحنين.

د– المدح السياسي :

تعتبر المأدبة التي وصفها أحمد ابن عمار في قصيدته المعروفة لقصر آل عبد اللطيف لها أكثر من مغزى، فهي مناسبة التقى فيها العلماء والرؤساء من ملوك ووزراء وأمراء، حتى يقول سعد الله :" أحسسنا من وصف ابن عمار لها، نثرا وشعرا، أننا في مجتمع راق يزدهر فيه الفن والأدب "[41].فتألق شاعرنا في مدح آل عبد اللطيف في أغلب أبيات القصيدة. فتجاوب فيها الشعر والسياسة فمزج بينهما، وتنوعت أغراض شعره في قصيدة واحدة، وقد ظهرت تلك المناسبة كحلم أبدعه خيال شاعرنا، ذلك أن لغة التخاطب والاهتمام لم تكن واحدة؛ فيبدأ بمقدمة يصف فيها القصر إلى غرض المدح الذي خص به عائلة ابن عبد اللطيف وبعض الأصدقاء الذين حضروا تلك الليلة البديعة والمليئة بالأخبار والأشعار. ففي مدحه عن دورهم السياسي في عهدهم قال :

لَئِنْ بَطُرَتْ أَرْضُ الجَزَائِرِ وَازْدَهَتْ عَلَى جُلَةِ الأَمْصَارِ حَقٌ لَهَا البَطَرَ
كَأَنَّ بِهَا وَ المَلِكُ يَحْمِيهِ رَأْيُهُمْ بِبَغْدَادِ لاَ جُورًا نَخَافُ وَلاَ أَشَر
لَنَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ مُحَمَّدُ وَمِنْهُمْ رَشِيدٌ أَوْ بَرَامِكَةٌ غُرَرُ[42]

يشبه الشاعر مُحَمَّد باشا في الجزائر بهارون الرشيد في بغداد وابن عبد اللطيف بالبرامكة، وهو يبين من خلال هذه الأبيات حيث عبر عن آراء مُحَمَّد باشا الصائبة هذه الآراء التي يشترك فيها الأمراء والعلماء فلا جدال ولا خوف في ظل هؤلاء الحكام وأمثالهم .

هـ– المدح بالجود والكرم :

في الجود والكرم قال عن ابن عبد اللطيف :

كَجُودِ بَنِي عَبْدِ اللَّطِيفِ إِذَا هَمَى فَمَا أَنْ يُقَاسُ بِالجَدَاوِلِ وَ النَّهَرَ
هُمْ أَوْثَقُوا لِلْمَجْدِ أَوْثَقَ عُرْوَةٍ كَمَا فَجَّرُوا لِلْجُودِ بَحْرًا بِهِمْ اِنْهَمَرَ[43]

و– مدح المدونات والكتب:

ويمكن أن نظيف إلى شعر المدح ذلك الشعر الذي قيل في تقريظ الكتب ونحوها، ومن ذلك تقريظ ابن عمار لكتاب" الدرر على المختصر" لابن حمادوش، حيث ختم ابن عمار هذا التقريظ بأبيات شعرية نذكر منها هذا البيت في قوله:

هَنِيئًا هَنِيئًا أَيَا مُخْتَصَرُ بِشَرْحٍ بَدِيعٍ جُمُوعٍ أَغَرْ

ونجده في موضع آخر كتب تقريظا لكتاب ألفه الوزير حمودة بن عبد العزيز التونسي، وهو تقريظ مثل فيه شاعرنا احمد ابن عمار بأساليب البلاغة الموروثة عن المدرسة الأندلسية في بلاد المغرب، وهي –كما قال أبو القاسم سعد الله– المدرسة التي كان ابن عمار من أواخر فحولها في الجزائر[44]، وكعادته مزج في هذا التقريظ النثري بأبيات من الشعر، وتتألف القطعة من اثني عشر بيتا من بحر البسيط، وقد التزم ابن عمار بأربعة أحرف في قافيتها، وهي اللام والياء والهاء والألف وكانت بدايتها وهي قوله:

شَمْسٌ تَجَلَتْ فَمَا أَسْنَى تَجَلِيهَا لاَحَتْ عَلَى غُرَّةِ الدُنْيَا تُحَلِيهَا
أَبْدَ مَطَالِعُهَا أَسْنَى طَوَالِعُهَا[45] مِنْ أَيْنَ لِلشَّمْسِ تُجْلّي فِي مَجَالِيهَا
قَوِيَ[46] بِهَا عَضَدُ التَوْحِيدَ مَنْشَئُهَا فَالسَّعْدُ يَكْتُبُهَا وَالفَخْرُ يُمْلِيهَا
دَلَّتْ مَعَالِمُهَا عَلَى إِبَايَتَهَا[47] وَمِنْ إِشَارَتِهَا لاَحَتْ مَعَالِيْهَا
مَوَاقِفُ يَكْبُرُ النِّظَامُ مَدْخَلُهَا وَهِيَ النَجَاةُ لِمَنْ أَضْحَى يُوَالِيهَا
لِلَّهُ أَبْكَارُ أَفْكَارٌ شَفَعَتْ بِهَا تَمْلِي عَلَيْهَا فَمَا أَحْلَى أَمَالِيهَا
قُوتُ القُلُوبَ وَإِحْيَاءِ النُّفُوسِ لِمَنْ (يَبْغِي)[48] مَقَاصِدَهَا وَالحَقُ يُعْلِيهَا
صَحَائِفُ نَقْعُ التَجْرِيدَ حَاصِلَهَا يُبْلِي الزَمَانَ وَلاَ يَسْتَطِيعُ يُبْلِيهَا
اِسْطَعْ بِبُرْهَانِهَا المَنْخُولِ وَأَسْمَى إِلَى شَمْسُ المَعَارِفِ فِي أَسْمَى تَجَلِيهَا
فَاللهُ يَحْرُسُ مُنْشِيهَا وَيُسْكِنَهُ أَثْنَى (وَإِنْ عَمَرَتْ)[49] أَوْقَاتُ مُمْلِيهَا
لاَزَالَ يُنَظِمُ فِي جَيدِ الإِيَالَةِ[50] مِنْ دُرِّ المَحَاسِنِ مَا يَحْكِي لِآلِيهَا[51]

فأثنى فيها على الرسالة وعلى صاحبها بعبارات شعرية رقيقة فشبه الرسالة بالشمس عند تجليها وشروقها فيصل نورها إلى أي مكان في الأرض فحلت وجملت الدنيا وما فيها، فقوى بها علم التوحيد، ونجد أن ابن عمار بهذا المدح يجعل الكاتب من المنشئين الأوائل لعلم التوحيد وهذا لبراعته في هذا العلم وهو يفخر به وبعلمه وقد واصل في مدح المؤلِف والمؤلَف إلى نهاية القطعة الشعرية.

الهوامش: .

[1]– عبد الكريم حسن، مفاهيم النقد الموضوعي، مجلة المعرفة، سوريا، 304-305، ديسمبر 1987، ص09.

[2]– عبد الكريم حسن، مصادر النقد الموضوعي، مجلة المعرفة، سوريا، 300-301، مارس 1987، ص90.

[3]– عبد الكريم حسن، مفاهيم النقد الموضوعي، مجلة المعرفة، 304-305، ص10 نقلا عن :جون بيير ريشارد، L'UNIVERS IMAGINAIRE DE MALLARM ,ed , seuil, p.24.

[4]– جميل حمداوي، المقاربة النقدية الموضوعاتية، مؤسسة المثقف العربي، سيدني، ط1، 2015، ص 26.

[5]– جميل حمداوي، المقاربة النقدية الموضوعاتية، ص 06.

[6]– أنظر: المرجع نفسه، ص10.

[7]– المرجع نفسه، ص11.

[8] – غازي طليمات و عرفان الأشقر، الأدب الجاهلي –قضاياه. أغراضه. أعلامه. فنونه–، دار الإرشاد، حمص/سوريا، ط1، 1992م/1412هـ، ص160.

[9] – ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج1، ص80 .

[10]– أنظر: غازي طليمات و عرفان الأشقر، الأدب الجاهلي –قضاياه. أغراضه. أعلامه. فنونه–، ص161.

[11]– أنظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي –العصر الجاهلي–، دار المعارف، القاهرة، ط11، دت، ج1، ص211.

[12] – قدامة بن جعفر، نقد الشعر، مطبعة الجوائب، القسطنطينية،ط1، 1302هـ ، ص20 .

[13] – المصدر نفسه، ص21 .

[14] – ديوان أشعار جزائرية، ص41 .

[15] – شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي في المغرب الأقصى، ج10، ص217.

[16]– ابن عمار، الرحلة، ص16.

[17]– ابن عمار، الرحلة، ص21.

[18]– ابن عمار، الرحلة، ص27.

[19]– سورة طه، آية114.

[20]– سورة العلق، آية 01.

[21]– سورة فاطر، آية 28.

[22]– سورة النحل، آية، 43.

[23]– سورة آل عمران، 18.

[24]– الحسن الدليمي، أعلام الدين في صفات المسلمين، تح: آل البيت، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، بيروت، ط2، 1414هـ، ص86.

[25] – ابن عمار، مختارات مجهولة من الشعر العربي، ص47 .

[26]– ابن عمار، الرحلة، ص54.

[27] – المصدر نفسه ، ص 47.

[28] – ابن عمار ، مختارات مجهولة من الشعر العربي ، ص47.

[29] – ديوان أشعار جزائرية، ص 46.

[30] – المصدر نفسه، ص44.

[31] – ديوان أشعار جزائرية ، ص 17.

[32] – المصدر نفسه، ص47.

[33] – ابن عمار، أشعار مجهولة من الشعر العربي، ص 68 .

[34] – ديوان أشعار جزائرية، ص62.

[35] – المصدر نفسه، ص62.

[36] – ديوان أشعار جزائرية، ص 62.

[37] – مُحَمَّد ابن ميمون صاحب كتاب " التحفة المرضية " فقد كان معاصرا لابن عمار، وأستاذا وشاعرا وكان عميق الثقافة في عصره .

[38] – ابن عمار، أشعار مجهولة من الشعر العربي، ص 62 .

[39] – غازي طليمات و عرفان الأشقر، الأدب الجاهلي –قضاياه. أغراضه. أعلامه. فنونه–، ص176.

[40] – ديوان أشعار جزائرية، ص 61.

[41] – ديوان أشعار جزائرية، ص 20 .

[42] – المصدر نفسه، ص67.

[43] – ديوان أشعار جزائرية، ص66.

[44] – أبو القاسم سعد الله،تقريظ للمفتي ابن عمار ظروفه ونصه، مجلة مجمع اللغة العربية، الأردن، العدد 65، ص237.

[45] – في الأصل طولعها.

[46] – في الأصل قوّ .

[47] – يقول سعد الله هكذا مرسومة في الأصل حيث مازال اللفظ والمعنى غير دقيق في نظره .

[48] – مابين قوسين كلمة اجتهد سعد الله في تخريجها لأنها غير واضحة.

[49] – ما بين قوسين غير واضح في الأصل وقرأه سعد الله على النحو المذكور.

[50] – الإيالة هي الولاية أو الإقليم الإداري في العهد العثماني، وكانت الكلمة شائعة بالنسبة للجزائر وتونس.

[51] – أبو القاسم سعد الله،تقريظ للمفتي ابن عمار ظروفه ونصه، مجلة مجمع اللغة العربية، العدد 65، ص248. وانظر في كتابه " تاريخ الجزائر الثقافي ج2/ ص277.